الدكتور

إلياس فرح

دور الثقافة في المجتمع العربي المعاصر





1986

دور الثقافـــــة في المجتمع العربي المعاصر

د.إلياس فرح



مادة البحث

١ ـ ضمن اية معايير يحق لنا ان نتكلم عن(ثقافة عربية) وعن دور لها في المجتمع العربي المعاصر؟

٢ ـ عندما نتكلم عن(المجتمع عربي معاصر) هل نتكلم عن حقيقة موضوعية حية واقعية. ام نتكلم عن صيغة ايدلوجية لم تتحقق بعد، تعيش في اذهان الطليعة العربية، وتضيع وسط تناقضات الواقع؟

٣ ـ عندما نتحدث عن(دور) للثقافة العربية في المجتمع العربي المعاصر. فما هي(طبيعة) هذا الدور وماهي ابعاده؟

٤ ـ هل نستطيع ان نتكلم عن /استراتجية/ لدور الثقافة الغربية في المجتمع العربي المعاصر؟

مقدمـة

يجد الانسان نفسه امام الثقافة، تجاه حقيقة مركبة، تجمع الذاتي والموضوعي، وتولف بينهما.

فتشكل(مراة انسانية) ينعكس فيها وجود الانسان منذ ولادته. ويرى فيها الفرد، كما يرى المجتمع ايضا صورة لتخلفه او تقدمه، ولضعفه او قوته. وكذلك لمدى انسجامه مع مرحلة نموه التاريخية او درجة اغترابه عنها..

فهي مرآة، قد تعكس امام وجودنا الفردي او الجماعي، صورة(طفولة) صحيحة او مشوهة واعدة او بائسة. وشبابا واعيا متفجرا بالحيوية، او وجودا ضائعا خاملا. (وشيخوخة) حكيمة ناضجة معلمة، او عجزا سقيما ناضبا..

وهي بذلك، قد ترينا صورة الطفولة والشباب والشيخوخة، بأشكال متداخلة، وليس بصورة مختلفة حسب.

فالطفولة الناضجة، والشباب الممتلىء حيوية وحكمة، والشيخوخة الفتية.. وهي التجليات الرائجة لوجود مزدهر، ولمرحلة ايجابية من التطور الاجتماعي والحضاري.. قد تفسح المجال لتداخل من نوع آخر. فنرى من خلال مرآة الثقافة(الاقتران السلبي) بين مراحل التطور الانساني. اي صورة النكسات والازمات وانواع الخلل في الواقع وفي طرق التصدي والمعالجة لمشكلات الواقع وتناقضاته ثقافة الاساسية.. اي نرى طفولة تبشر بالموت بدل ان تطل على المستقبل. و(شبابا شائخا)، وكهولة لا نضيج فيها، وشيخوخة مراهقة، لم تستخلص شيئا ايجابيا من مراحل العمر التي قطعتها.

ولا تقف (الثقافة) امام الوجود الانساني، فرديا كان ام جماعيا، موقف (المرآة) العاكسة حسب. بل انها تفعل في هذا الوجود فعلا يتفاوت اثره مع درجة التفاعل بينهما.

اي مع درجة(التمثل الحي) لكل منهما للاخر ولمقدار اقتراب هذا التمثل من (وحدة الهوية) اي من التطابق بين طرفي المعادلة الحضارية للوجود البشري.

فقد تكون الثقافة مطابقة لصورة واقع سلبي، فتكون عندئذ مع ذلك الواقع نتاج مرحلة بعيدة عن الحقيقة الايجابية الاصلية للامة وهي تغالب واقعها السلبي الطاريء لكي ترتفع فوقه وتنتقل من مرحلة انحطاط الى مرحلة نهضة وانبعاث.

وقد تكون الثقافة نتاج مرحلة ايجابية ماضية، انقطعت صلتها بالحاضر، فتحولت من جوهر حي، من حياة فاعلة

مستمرة، الى ذكريات محنطة، وبالتالي الى اشكال جامدة وفي مثل هذه الحال تكون الثقافة عبئا على ذاتها وعلى واقعها، لان الانفصال بينهما يتعزز والانقطاع يستمر بشكل يهدد شخصية الامة ذاتها.

وقد تستلهم الثقافة حاضرها وتستمد من معاناة الامة الراهنة منطلقها دون ان تأخذ بعين الاعتبار تكامل الوجود القومي عبر مراحل تطوير الامة، فتقبل على تجارب الامم في العالم الراهن، وتنهل من ثقافاتها، وتصبح امتدادا هزيلا لها. وعندئذ تبتعد عن روح واقعها وعن شخصية الامة. فلا يكون فعلها في تفسير الواقع شاملا ولا عميقا.

واخيرا، قد تنبع الثقافة من ذات المنابع التي كانت مصدر وجود الامة وحقيقتها وازمة تطور واقعها، فتكون جزءاً من معاناة الامة الداخلية، اي صلتها الحية بماضيها ونضالها مع واقعها، وتفاعلها مع العصر وتجاربه الحية وعندئذ تأتي (المرآة) الاكثر تعبيرا عن حقيقة (الوجود) فتكون (الثقافة) سلاحا، بمقدار ما هي معرفة وضميرا بقدر ماهي عقل ومنطق. وبنيانا كما هي وظيفة، ودليلا، بقدر ماهي طريق. وعاملا مبدعا خالقا للوجود بمقدار ماهي جزء لا يتجزأ من تكوينه

ان مثل هذه النظرة الى الثقافة، قد تؤدي الى التداخل بين مفاهيم تقليدية، جرت العادة على تصنيفها وتحديد دوائرها المتمايزة كالمدنية والحضارة، والايدلوجية، والفلسفية. والعلم. بيد ان المنهج الذي ينطلق منه هذا البحث، لا يتفق مع صيغ التفاعل النظرية مع (الثقافة) لانها تشكل حسب المنهج العلمي الجدلي التاريخي تعبيراً حياً، ووجوداً فاعلا، لا يمكن ان يتقلص عند حدود التعريفات النظرية الجامدة، كما انها، اي الثقافة تشكل (روح الحضارة) واهم الاسس التي تقوم عليها (الايدلوجية) وهي بأعتبارها تمثلا حيا متجددا للمعرفة وللتجارب الانسانية، فلابد ان تكون مفتاحا لاقامة جديدة للتفكير الفلسفى الشمولى. وللعقل العلمي وللمعرفة العلمية الموضوعية بقدر ماهي معاناة نظرية وعملية معبرة عن شخصية قومية انسانية متطورة.

وعلى اساس هذا المنطلق، تستطيع ان تعتبر (الثقافة العربية) بمثابة المستوى الاعلى من المعاناة الانسانية والنضالية للانسان العربي وللمجتمع العربي في المرحلة الراهنة من حياة الامة. فالانسان العربي امام الثقافة يجد نفسه امام امتحان الاصالة جنبا الى جنب مع امتحان المعاصرة. كما يجد نفسه امام مسؤولية تقرير مصير مجتمعه في هذه المرحلة التاريخية. وامام صوت جماهير امته، هذا القطاع الواسع من البشرية الذي تناديه وتطالبه بأن يتقدم صفوفها ليرسم لها طريق تحريرها من القيود التي تحول دون قيامها بدورها التاريخي الكبير.

لان الثقافة هي الموقف النظري والعلمي من الحياة، الذي يدفع الانسان العربي الى جملة من المواقف الاساسية التي تحدد معنى وجوده وحياته ونضاله وانسانيته، وهي:

ا ـ المراجعة النقدية الشاملة لمكوناته الثقافية الموروثة من مرحلة الانحطاط السلبية المشوهة للشخصية العربية.

ب ـ تخطى الانقطاع الحضارى، وتجديد الصلة بالتراب الحي للامة، بالارتفاع الى المستوى النضالي والمستوى الروحي الذي يحقق الانقلاب على الذات ويبعث الشخصية ويشق طريق التحول الشامل في الحياة العربية.

جـ ـ تحديد الاهداف التاريخية للمرحلة القومية، في ضوء التحليل العلمي الجدلى التاريخي للتناقضات الاساسية للمجتمع العربي وواقع العصر وثقافاته وحضارته.

بالاستناد الى التراث الحضاري والروحي للامة العربية.

د ـ انضاج المنظور الحضاري الانبعاثي الجديد للنهضة العربية المعاصرة في الازمة الحضارية للعالم المعاصر، والحاجة الى التطوير الدائم للمعرفة وللذكاء والشعور الانساني وللاشعور الحسي على الصعيدين القومي والعالمي، بالروح وبالاتجاه المساعدين على جعل الانسان والانسانية اشد تلاحما واكثر انسجاما مع قانون التفاعل الحضاري الذي يطلق قوي التقدم يكفل التطور الخلاق الاصيل لكل امة، وتحقيق شخصيتها ورسالتها الانسانية.

وهذه المواقف الاساسية التي تدفع اليها الثقافة في المجتمع العربي لا يمكن ان تتحقق الا بالنضال الشامل. اي بثورة المعرفة المقترنة بثورة الموقف والحياة والقيم، في الوطن العربي فالثقافة العربية، لن تستحق هذا الاسم الا اذا كانت عاملا في تحقيق هذا التحول النوعي في الحياة والمثقف العربي. لن يكتسب شرعية هذه التسمية الا بدافع ضريبة الثقافة وان يصبح فكره مناضلا، يشق طريق الانبعاث ويعده حتى يصل الى قطف زهوره ورياحينة اذن لا بد لتحديد دور الثقافة العربية وبالتالي المثقف العربي في المجتمع العربي المعاصر من محاولة الاجابة على مجموعة من الاسئلة التي تشكل العناصر

الاساسية لهذا البحث.

أ - ضمن اية معايير يحق لنا ان نتكلم عن(ثقافة عربية).

ب - ماهي الدلالة العميقة لعبارة(مجتمع عربي (معاصر) وما مدى مافيها من حقيقة حية واقعية، من جهة ومن تطلع وطموح ونظرة ايدلوجية الى الواقع العربي.

د - ما هي طبيعة الدور الذي يتطلبه المجتمع العربي المعاصر من الثقافة. وما هي ابعاد هذا الدور؟

جـ - الى اي حد نستطيع ان نتكلم عن(استراتيجية ثقافية) وعن دور للثقافة العربية قائم على التخطيط المستوعب لطبيعة دورها؟

١ - ضمن اية معايير يحق لنا ان نتكلم ثقافة عربية في المجتمع العربي المعاصر؟

ان تحديد (معنى الثقافة) يصطدم، كما لاحظنا في مقدمة هذا البحث، بصعوبات، ويتعرض لاخطاء منهجية، لا بد من التحرر منها وهي اخطاء النظرات التقليدية التي تعزل الثقافة عن اطارها الحي المتمثل بحياة الامة وتحديات مصيرها وتناقضات واقعها، وبالسياق التاريخي الذي تمر به. او اخطاء النظرات الجزئية والسلفية والاغترابية..

الى غير ذلك من المفاهيم التي تفقد الثقافة او تبعدها عن اي دور ايجابي في هذه المرحلة من تطور المجتمع العربي. فالثقافة يمكن ان ينظر اليها ككل مركب، وكخط معبر عن صورة الحياة المميزة للجماعة القومية في الماضي، كما يمكن ان ينظر اليها كتيار حي. اي ككل مركب متحرك متطور تام شأن الظواهر الحية الاخرى للوجود الانساني. وكما يمكن ان نتكلم عن (انماط ثقافية) يجرى الكلام ايضا عن (دينامية ثقافية) تتناول العلاقة ولروابط المتبادلة بين انماط التحول في البنية الاقتصادية، وفي البنى والعلاقات الاجتماعية، وفي التحولات الفنية الاجتماعية ونظام القيم، داخل الحياة القومية حسب اختلاف مراحل التطور وضمن اوطأ التبدلات والمتغيرات الكبرى لحياة القارات والمجتمعات البشرية بوجه عام حسب اختلاف العصور. والى جانب معايير التقليد والتجديد، والاحالة والمعاصرة، والالتزام والانتماء، يمكن الكلام عن معايير طبقية وقومية وحضارية للثقافة.

الا ان الثقافة هي شيء اكثر من مجموع عناصرها واتجاهها ومحتوياتها. وفيها كما في كل كائن حي (نواة) اساسية، وعناصر (محيطية) بديلة، تشكل جملة العوامل المساعدة على التجدد والتطوير.

لذلك فأن المعايير التي تحدد معنى الثقافة العربية ترتبط بالدرجة الاساسية الأولى بحقيقة الامة التي تعتبرها وبشخصيتها وبمعاناتها الراهنة.

ان العلاقة بين الثقافة والشخصية، تؤكد حقيقة اساسية وهي ان الترابط بينهما يصل الى حد تبدوان معها كما لو انهما مترافقتان فمنذ ان استخدمت كلمة (ثقافة) للدلالة على عملية (تنمية الافكار داخل الشخصية الانسانية) بعد ان كانت تدل على عملية(تنمية البذور المزروعة داخل الارض) كان ذلك تأكيدا على ان ارتباط الثقافة بالشخصية يوازي ارتباط الثمرة بالشجرة وبالارض وبالمناخ وبالموسم.. اي بشروط حية للوجود وللنمو وللعطاء. ولعل الامة العربية. كما يكشف لنا تاريخ تطورها الحضاري، تشكل من حيث وحدة الثقافة والشخصية، نموذجا حيا متميزا بين الامم الحضارية في الماضي، كالصين والهند والاغريق وكذلك بالنسبة الى الحضارة الاوربية المعاصرة. لان رسالتها الانسانية الروحية قد كانت جزءا من شخصيتها الحضارية.

لذلك فأن معيار ارتباط الثقافة العربية بشخصية الامة وكفاحها المصيري يعتبر في مقدمة المعايير الاساسية في البحث عن دور هذه الثقافة في المجتمع العربي المعاصر. اذ يفترض في الثقافة العربية ان تكون مسئولة عن الجزء الاكبر من محتوى الشخصية القومية وعن طريقة بعث هذه الشخصية في المرحلة الراهنة، من تطور المجتمع العربي. وبالتالي ان تعبر عن حياة حقيقية تتفاعل مع الشخص وتؤثر فيه، كما يقول الرفيق القائد المؤسس (١)

فالانسان العربي، يقف امام الثقافة، موقفه امام مصير الامة والثقافة تشكل (نواة) معركة المصير، والسلاح المتقدم على جميع الاسلحة. لانها مكلفة ببعث الشخصية القومية من جديد فهو يجد فيها عامل انقلابه على ذاته، وشرط انسجامه مع حقيقة الامة، وانفصاله عن رواسب مرحلة الانحطاط. واسترداده لوعية المفتقد ولوجود الضائع، وامتلاكه الجديد لمنظوره الحضاري الاصيل، ولاستعداده لدخول مرحلة الانبعاث القومي بأدراك عميق لمتطلبات هذه المرحلة التاريخية اذن فالثقافة العربية اليوم، هي عنوان لشخصية الامة العربية وهي تخوض معركة انبعاثها من جديد.

فهي امتداد حي متجدد ومبدع للثقافة العربية الاسلامية من الماضي لانها تمر بمخاض ثورة ثقافية جديدة.

انها اذن تتصل بخلق واقع اجتماعي معين لم يوجد

بعد(٢)، فالدينامية الثقافية التي ترتكز الى جذور تراثية عميقة والتي تواجه اسلحة العصر الفكرية والاعلامية والاقتصادية جنبا الى جنب مع الاسلحة الاخرى. . . هي ايضا معايير اساسية معايير تحديد معنى الثقافة العربية في المجتمع العربي المعاصر. .

وبهذا الاعتبار، فأننا نستطيع ان نتكلم عن (بنيان) للثقافة العربية يشكل التراث القومي العنصر الاساسي الثابت فيه، الى جانب (دينامية ثقافية) ترافق عملية التحول الكبرى في الحياة العربية الراهنة، وتوجهها وتقودها ولا شك في ان التكامل والتفاعل بين بنيان ثقافية العامة وبين الوظيفة الراهنة لهذا البنيان المتمثلة بحاجات المعركة الثقافية من أجل تجديد الفكر العربي والشخصية العربية، هو الذي يوفر على ازمة النمو الطبيعية الراهنة النتائج السلبية لاختلال التوازن بين اطراف المعادلة فلا تصبح ازمة الثقافة جزءا من ازمة الواقع بل تكون مظهرا من مظاهر المعاناة الايجابية العميقة لاولادة مستوى جديد من الشخصية ومن الحياة ومن الثقافة فكما يصعب ان نتكلم عن(ثقافة عربية) دون ان نأخذ بعين الاعتبار البعد التراثي متمثلا (باللسان العربي) الذي عبرت من خلاله الامة العربية عن جزء مشع من حقيقتها ومن عبقريتها(٣). (بالقرآن الكريم) الذي نقلت اياته العرب من مرحلة الضياع القومي والتخلف الحضاري، الى ثورة ثقافية روحية حضارية شاملة (بالبطولات) التي جعلت من القها، طريقا يصل الارض بالسماء ويحقق انبل القيم على الارض. . وبالنتاج الفكري، الفلسفي والكلامي والصوفي والعلمي والتجريبي والموسوعي، وبالفن العربي والادب، الذي انتجته عصور الأزدهار الحضاري العربية. . لانه هذا التراث الحي هو الذي يحركنا اليوم نحو النضال ونحو التجدد والابداع.

كذلك يصعب علينا اليوم، ان نتكلم عن(ثقافة عربية) خارج اطار مفهوم النهضة العربية والانبعاث العربي. فالثقافة في المجتمع العربي المعاير. هي (فلسفة النهضة العربية)٤، وفي ضوء هذه المعابير الاساسية لمفهوم (الثقافة العربية)، نستطيع ان نبين اهمية(معيار اللغة في تحديد هذا المفهوم، دون ان نغفل عن خطورة الاكتفاء بهذا المعيار.

فربما ينتاب اللغة من ضعف، ويضعف التقدير لمزايا اللغة العربية، اوتأخذ الصلة بها شكل تعلق آلى شكلي وسطحي لاينفذ الى جوهر صلتها بحياة الامة اوينظر اليها كما ينظر المستشرقون، على انها(آلة رائعة) للتعبير عن الافكار والمشاعر دون النفاذ الى جوهر تلك المشاعر. او تتحول العلاقة بها الى علاقة سلفية صنمية بعيدة عن الصلة الحية بروح الامة والرباط الحي بين الاعجاب بها وبين المسؤولية القومية تجاه الامة التي انجبتها. . بقدر ذلك كله.

تضعف النظرة الى الثقافة القومية وتتراجع وتحبط عن مستوى الدور الذي ينبغى ان تلعبه في المجتمع العربي المعاصر.

فاللغة العربية، لغة الضاد، الجامعة لابناء العروبة، بالرغم من تمزق ارضهم واستلابها، وتصدع صلتهم بتراثهم الحضارى والدافعة لهم للنهوض والضامنة لسلامة هذا النهوض ولقوته انها تشكل معيارا يتعزز تأثيره كما كان جزءا من معيار اوسع واشمل، هو معيار(التراث القومي) والمستند الى نظرة حضارية علمية وثورية، تأخذ اللغة فيه لكل ماتنطوى عليه من نظام منطقى وموسيقي وحدوس نفسية وبنية اجتماعية وعلاقة بالاشياء وبالقيم وبالمطلق موقعا بارزا في التراث الفكرى او الروحي والحضارى للامة في الماضي حسب بل وتأخذ ايضا مكانها في التعبير عن حيويتها في هذا العصر امام معطيات التفاعل مع الثقافات الاخرى ومع التقدم العلمي والتقنى. كما اخذت موقعها في مراحل النهضة العربية المعاصرة كسلاح في وجه التتريك والفرنسية وغيرها من عمليات القضاء عليها وطمس الهوية القومية. وكما سوف تأخذ موقعها في التعبير المجدد عن يقظة حركة العربية وثورتها الشاملة في هذا العصر.

لذلك فأن معيار اللغة العربيةوالتراث القومي، لاينفصلان عن معيار التفاعل الثقافي مع العصر. فالثقافة العربية، بقدر حاجتها الى استيعاب اصولها الحضارية القديمة صعودا الى الخلفية القديمة في حضارة وادي الرافدين ووادي النيل. ومن ملحمة كلكامش وشريعة حمورابي وكتاب الموتى، الى المرحلة الممهدة للاسلام بما تنطوي عليه ايضا من رموز الشعر الجاهلي والحكم والامثال والملاحم الى القرآن، كلغة وفكر وثقافة وروح وسلام. . جنبا الى جنب مع المصادر الروحية والفلسفية والادبية والفنية في الديانات السماوية والحضارات التاريخية. .

كذلك فان الثقافة العربية هي بحاجة ايضا الى استخلاص معنى العصر الذي تنهض فيه الامة من

جديد، بعد انقطاع حضارى طويل. لكي تستكمل شروط وعي الامة لذاتها ولمعركتها ولطريق نهضتها وللقوى المعادية لهذه القوى الصديقة والحليفة لها واستخلاص معنى العصر، يعني الحاجة الى هضم التطور العلمي والصناعي والتكنولوجي الحديث جنبا الى جنب مع تاريخ التطور. الاجتماعي وتاريخ الافكار والثورات التي انضجت هذا التطور. .

كما يعني ايضا استيعاب المرحلة الاستعمارية التي عرفها المجتمع العربي المعاصر وآثارها على الامة العربية وعلى العالم، ثم استجلاء صورة هذا العالم

بعد الحرب العالمية الثانية، ودور الثقافة الغربية في الهيمنة على الفكر العربي والاشكال المتعددة للغزو الثقافي، وأزمة الحوار الحضاري في عالم اليوم.

ثم ان معايير التراث القديم والحديث، لاتنفصل في الثقافة العربية اليوم عن المعيار المركزى للتطور القومي والمعركة القومية المصيرية مع اعداء النهضة العربية من امبريالية وصهيونية وقوى رجعية حليفة لها داخل المجتمع العربي وخارجه. .

فلا بد اذن للثقافة العربية من ان تستوعب تناقضات الواقع العربي الذي تتجه اليه. وأن تكتشف قوانين حركة التطور العامة للمجتمع العربي، وأن تضع يدها على خصوصيات هذه الحركة وأن تتبين بوضوح تحديات التطور في المجتمع العربي وتحديات الوجود القومي ومصير الامة العربية لكي تكشف من خلالها حاجات النهضة وطريق الانبعاث والاسلحة الفكرية التي تتطلبها المعركة القومية الحضارية. .

وهكذا فأن معيار المعرفة يرتبط ارتباطا وثيقا بمعيار الثورة ومعيار الاصالة بمعيار البصيرة، والمعايير القومية بالمعايير الحضارية الإنسانية لان الثقافة العربية في المجتمع العربي المعاصر ثقافة مقاتله، قدرها الحرب والثورة الدائمة لأن المجتمع العربي المعاصر، مجتمع مقاتل، قدره الحرب لان نهضته ذات طابع تاريخي حاسم، وهي مكلفة بتصحيح انحراف طويل في الزمان وعميق في الشخصية يتجاوز الحالة القومية الى الوضع الانساني، لان اعداء نهضة الامة العربية اليوم هم اعداء الحرية والاشتراكية والسلام في العالم اجمع. . .

٢ ـ عندما نتكلم عن (مجتمع عربي معاصر) هل نعبر عن حقيقة موضوعية راهنة أم عن تطور وطموح تحكمه نظرة ايديولوجية؟

ان المثقف العربي ما يزال محكوما بنوعين متناقضين من الضياع يبعدانه عن التفاعل المباشر الحي مع الواقع العربي ويجعلان حديثه عن المجتمع العربي المعاصر، نوعا من الانعكاس الخاص للعالم المعاصر فهو ظل خافت ضئيل لمجتمع آخر يعيشه المثقف العربي من خلال الثقافة الغربية والى جانب هذا النوع من الاغتراب، الناجم عن نقص في الاصالة، يقوم نوع آخر من الاغتراب يتلخص في النظر الى الواقع من خلال صورة المستقبل المرجوله. .

ففي الضياع الاول تغيب (الثقافة العربية) تعبر عن وعي علمي شمولي لواقع المجتمع العربي المعاصر.

وفي النوع الثاني، يغيب الواقع نفسه في ضباب تصور ايديولوجي طوباوى يفتقد الى المعرفة العلمية للواقع الاجتماعي. .

وربما كانت النقطة الجوهرية لازمة الثقافة والمثقف العربي ماثلة في هذين النوعين الرئيسي من الضياع. . فالثقافة العربية المستندة الى دراسة علمية شمولية للظواهر السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في الوطن العربي والتي تشكل اساسا لايدلوجية عربية علمية ثورية، هي وحدها الكفيلة بتحديد مفهوم مطابق للحقيقة الموضوعية لواقع المجتمع العربي المعاصر من جهة، ولحركة التغير الشاملة التي تعتمد فيه بأتجاه القضاء على تناقضات التجزئه والهيمنة الاجتماعيه والتبعيه والاستغلال الطبقي والتخلف الحضارى والاحتلال الصهيوني. .

ان معركة المجتمع العربي مع رواسب مرحلة الانحطاط فيه، ومع اعداء نهضته، تشكل الساحة الاساسية التي تنبت من خلالها الافكار المطابقة للمعاناة الداخلية للمجتمع العربي المعاصر. وهي التي تكشف عن المقاومات والتحديات الداخلية وضروب العطالة وتيار المحافظة، الذي يشد المجتمع العربي خارج العصر وبعيداً عن الثورة كما تكشف في الوقت نفسه عن اهمية (الثقافة) عندما تصبح دليلا اصيلا للالتحام بروح العصر وسلاحا بيد الجماهير الكادحه المناضله، ونوعا من النضال بالنسبة الى المثقف لكي يتعب في تحصيل المعرفه، ولكي يجرؤ على تبديل الاسس السطحية في الفكر الشائع ويعيد النظر في كل الامور الاساسية حتى يصل الى النظرة الجديدة(٥) وقد كانت سلسلة المعارك التي خاضها المجتمع العربي مع الاستعمار ومع الكيان الصهيوني عامل اضاءة للوعي العربي، ودافعا لانضاج مفاهيم اكثر اصالة للثقافة العربية، واكثر علمية وموضوعية للمجتمع العربي المعاصر. .

وكان ماطرأ على نظم التربية والتعليم من تغييرات ايجابية وما تعرضت له بنية المجتمع العربي السكانية، وغيرها من البنى الاجتماعية والاقتصادية من تطور بأتجاه التكامل القومي، دور في تقريب (مفهوم المجتمع العربي المعاصر) من المفهوم العلمي الذي يأخذ بعين الاعتبار، الى جانب تعدد البيئات الاجتماعية العربية وتفرعها واختلاف مراحل تطورها، التيار العميق الذي يشق طريقه نحو وحدة هذا المجتمع ونحو تطوره وتنمية ثرواته الطبيعية والبشرية ونحو استعادة روح النهضه والشعور بالرساله فيه..

فأذا توقفت النظرة الى المجتمع العربي عند حدود المعطيات الراهنة الموروثة من الماضي الذي كانت فيه الامة العربية خاضعة للمرحلة الاستعمارية وكذلك عند حدود ماتفعله الانظمة العربية في تقليد السياسات الاستعمارية في تعاملها مع الجماهير ومع الواقع الموروث من الانحطاط... فأن صورة (المجتمع العربي المعاصر) تغيب تماما. فلا يبقى (مجتمع عربي) بل (مجتمعات عربية) تزداد تجزئة وانقساما، ولا تبقى (معاصرة) لان العقلية التي تحكم هذا الواقع وتستغله، والاوضاع التي يمثله هذا الواقع لا تمت بصلة الى روح العصر.

امـا اذا اتسعت النظرة الى رؤ ية الحركة الداخلية في قلب هذا الواقع حركة التغير، ونموعي الجماهير العربية، وازدياد حجم الطبقة العاملة واتساع رقعة الذين اخرجوا من عماء الامية، وتسارع التطور الاقتصادي وارتفاع نسبة التعليم والاختصاص، وبدء مرحلة البحوث العلمية الجديدة.. جنبا الى جنب مع حركة النضال القومي فأن صورة المجتمع العربي المعاصر تبدأ بأخذها موقعها في الواقع وليس في الحلم. وهي صورة مجتمع يتكون ويبنى عبر النضال لان التحدي الصهيوني ـ الاستعماري قد فرض على الحياة العربية خلال مرحلة النهضة المعاصرة، طابع المعركة المصيرية الدائمة فالمجتمع العربي المعاصر يكتسب وحدته ومعاصرته من حقيقه حيه متمثلة في النضال من أجل الوحدة ومن اجل الحرية ومن أجل المجتمع الاشتراكي الذي يضع الانسان غاية له...

فالنضال هو المعيار الذي به يرتفع المجتمع العلمي المعاصر الى المزيد من تحقيق الوحدة وتحقيق المعاصرة والذي بدونه يتحول المجتمع العربي الى امتداد لمرحلة الانحطاط التي كادت تطمس هويته القومية وتعزله عن مجرى التاريخ وعن مسار التقدم في الحياة الحديثة للعالم..

والثقافة العربية بتحديدها العلمي المفهوم(المجتمع العربي المعاصر) انها تقوم بدورها في عملية بناء الوعي المطابق لحقيقة المستقبل والموجه لحركة التغير القائمة فيه..

٣ ـ عندما نتكلم عن(دور) للثقافة العربية فما هي طبيعة هذا الدور وماهي ابعاده؟.

ان الدور العام الذي تضلع به الثقافة في سائر المجتمعات البشرية على اختلاف تكونها القومي وخلفيتها الحضارية ودرجة تطورها وغناها اوفقرها.. وهودور ربط المعرفة بالحياة يجد على صعيد الحياة العربية نوعا من التجاوب العميق مع اشد حاجاتها خصوصية..

لان ربط المعرفه بالحياة يعني في ظل الحياة العربية المعاصرة جملة من الابعاد والمعاني الأساسية: كربط المعرفة بالنضال واعادة قراءتها واكتشافها للتراث واطلاعها العميق على تيارات العصر، واستجابتها لحاجات المرحلة التاريخية والتامها بقضية انبعاث الامة..

وهكذا يلتقي العام بالخاص التقاء يجعل من الثقافة العربية التي هي شأن المجتمع العربي المعاصر، قيد التكوين، بناء اتساناً عميق الجذور سواء في تطلعه، أو اتصاله بالقيم المطلقة.. فاذا كان العرب في نهضتهم المعاصرة، يتطلعون الى تحقيق انسانية اكثر انسجاماً مع القوانين العامة لتطور البشرية والحضارة في تمسكهم بالطابع الانساني والحضاري لثقافتهم ولشخصيتهم القومية بالرغم من صراعهم مع القوى العنصرية الاستعمارية والصهيونية، انما يشكل التعبير الاصدق عن روح الرسالة في هذه النهضة وفي الثقافة العربية المنبثقة عنها، كما يشكل الميزة الكبرى لتطور المجتمع العربي المعاصر وللروح التي تبعث هذا المجتمع وتقدمه وتمنحه القدره على الاشعاع وعلى التأثير الايجابي في تجارب العالم المعاصر..

وهذا يعني ان الالتحام بين الثقافة العربية وبين الشخصية العربية المنبثقة من جديد من جهة، بينها وبين حركة التغيير الشاملة في الوطن العربي من جهة اخرى وهو محور الدور التاريخي الذي يترتب على الثقافة العربية في هذه المرحلة من تطور المجتمع العربي المعاصر..

ومن هنا علينا ان نتكلم عن (ثورة ثقافية) في مجتمعنا العربي كضرورة موضوعية وان يكون الدور الرئيسي للثقافة العربية هي في ان تحقق ثورة دائمة على نفسها

وعلى واقعهـا ، حتى تصبح تعبيرا عن شخصية حضارية تنمـو وتتضـح وتتجـدد وتبـدع . . وهكـذا فأن دور الثقافة العــربيـة في المجتمـع العـربي المعـاصـر هو من (طبيعـة انبعـاثيـة) لان ثقـافـة (المـواجهـة العـربيـة) ثقافة المعركة الـدائمـة مع الـذات ومـع العـدو من أجـل الارتفاع الى مستـوى الجواب التاريخي على التحديات التي تجابه الامه العـربيـة في مرحلة نهضتهـا المعـاصـرة ليست مجرد اختيار ارادي مصـيـري بقــدر ماهي تلبيــة لحاجـات نضـاليـة موضوعية واستجابة لضرورة تأخذ موقع القانون الاساسي في تطور المجتمع العربي المعاصر . .

وعلى هذا الاساس فان دور الثقافة العربية في المجتمع العـربي الـراهن يبدأ من نقطة انطلاق اساسية اولية وهي ان ترتبـط هذه الثقـافة بالنضال وان يصبح لسلاح الكلمة وقـع يتفـوق على جميـع الاسلحة الاخرى وان يكون لهذا السلاح الثقافي فعل مزدوج على صعيد الثقافة نفسها اولا ثم على صعيد الساحة المتعددة المجالات لمعركة الثقافة في المجتمـع العـربي المعـاصر . فعلى صعيد الثقافة ، يرتد سلاح الفكـر المنـاضـل جهـادا ضد الافكـار المترسبة من مرحلة الانحطـاط جمودا ـ ورجعيـة وضـد الافكـار المنقولة المعـبرة عن شخصيـة ثقـافيـة تنحني الى مجتمعات اخرى تختلف في سيـاقهـا التاريخي وفي شخصيتها الحضارية عن طبيعـة المجتمـع العلمي المعـاصـر وعن طبيعـة مشكلاته وتحـديـاتـه وشخصيتـه التـاريخيـة ، وعنـدئذ تكف الثقافة العربية عن كونها أما حصيلة لمرحلة الانحطاط او انعكاسا للثقافات الاخرى فتبنى نفسها بناء مستقلا اصيلا وتنتقل الى ان تصبح تعبيرا حقيقيا عن مرحلة النهضة والانبعاث القومي . . .

امـا صعيـد الميـادين الاخـرى لعمـل الثقافة ، فأن طبيعة الانبعاثية لدور الثقافة العربية هي ان تحدد ابعاد هذا الدور . . .

فهو اولا (ثوري) لانها مطالبة بتقرير المجتمع وبخلق حالة من الاستعـــداد المتصـاعـد لاستيعـاب متطلبـات مرحلة الانبعـاث والـوعي لتنـاقضـات المجتمـع العربي المعاصر والاقبـال على مواجهة التحديات التي تقف في وجه نهضة الامة بروح الجهاد والاستيعاب

وهو ثانيا (جماهيري) لان الثقافة العربية التي تستهدف بعث الامـة لابـد أن يتركـز دورهـا على جماهـير الامـة الكـادحـة المنـاضلة لانهـا تشكـل الجـوهر الحقيقي للامة فاهتـمامـات هذه الثقـافة والمصالح التي تعبر عنها والمعارك التي تخوضها لابد ان تكون ذات صلة مباشرة بتلك الكتلة الكبيرة من الشعب العربي التي تتركز في معاناتها لاقصى واقسى معاني الكدح والالم والنضال والتضحية . .

ثم ان الدور الجماهيري للثقافة العربية في المجتمع العربي المعـاصـر انـما ينطلق من الايمان بما تمتلكه الجماهير العربية من طاقـات نضـاليـة وكـذلك من الادراك للدور التاريخي الـذي ينتظرها اذا ما التحمت ارادتها بوعي ثوري شمولي لمتطلبات هذا الدور التاريخي . . .

وهـو ثالثـا (وحـدوي) تتركـز مهمتـه ايضـا على ابراز التنـاقض الاساسي الاكبر في المجتمع العربي المعاصر الا هو (التجـزئة السياسية) التي تضافرت مخططات الاستعمار والصهيونية ومعها القوى التي تعيش على مصالح التجزئة على تحويلهــا الى (تجـزئـة قوميـة) وزرع بؤ ر الانقسـام والانفصـال والعصبيات والكيانات ومضادات الوحدة . . بشكـل يجعـل مخططـات التجـزئـة وميكـانيكيتها ، اسرع وافعـل من دينـاميـة العمـل الـوحدوي ويتخذ من سلاح التـآمـر على الـوحـدة النهج الثابت والمعاكس في وجه كل نضـال وحـدوي فالـدور الايجـابي المنـوط بالثقافة العربية لمواجهـة التآمر على الوحدة وشق طريقها ، يتطلب بصيرة تاريخيـة وقـدرة كاشفـة للمخططـات السلبيـة ونفـاذا الى الطبيعـة الجـدليـة للنضـال الـوحـدوي لتحويل نكسات العمل الوحدوي الى دروس غنية ايجابية . .

وهـو رابعـا (تحـرري) يجعـل من الثقافة العربية عامل اضـاءة لابعـاد النضـال مع الاستعـمار والصهيونية وعامل كشف عن اثـار المرحلة الاستعـماريـة في المجتمع العربي المعـاصـر وعن الاساليب التي يتذرع بها الاستعمار الجديد والاشكـال الجديدة للفاشية لابقاء اثارهما وتثبيت وجودهما وتـركيز قوتهما في وجه النهضة العربية خاصة اساليب الغزو الثقافي المنظم للحيلولة دون قيام ثقافة عربية قادرة على ان

تلعب دورها التاريخي في نهضة الامة، وتعطيل كل تأثير ايجابي داخل المجتمع العلمي المعاصر في اتجاه نشر العربي التحرري وتعميقه وتسليح الاجيال العربية بمضادات التأثيرات الثقافية الاستعمارية.
وهذا الدور التحرري للثقافة العربية يلتقي مع تيارات التحرر والتقدم في العالم اجمع وخاصة في العالم الثالث الا انه يكتسب بعدا جديدا (تحرريا) متميزا عندما يتركز حول قضية فلسطين.
ويشكل بذلك عامل ابراز لخصوصية النضال العربي في المجتمع العربي المعاصر، ولمدى عمق هذا النضال وعظمة اقتداره واتصاله المباشر بتحرر الانسانية ككل لان التحالف الاستعماري الصهيوني يشكل التحدي الخاص للامة العربية فالتكوين الراهن للقوى في عالمنا المعاصر يفرض علي المجتمع العربي المعاصر ان يشق طريقه الخاص الصعب، معتمدا كل الاعتماد على نفسه وقواه الذاتية وان يجابة قوى اشرس تحالف في عصرنا.
فالدور (التحرري) للثقافة العربية في المجتمع العربي المعاصر لايكسب معناه الحقيقي ولايصبح دورا فاعلا في التحرر على الصعدين القومي والعالمي الا اذا جعل من (تحرير فلسطين) هدفه الاساسي الاكبر.
وهو خاص (اشتراكي) ينظر الى التناقض الطبقي كتناقض (معطل) بقدر ماهو (محرك) للتطور التاريخي العام للبشرية فالتناقض الطبقي في المجتمع العربي المعاصر يلعب دورا معيقا ومشوها لهذه الامة الكادحة التي تصطدم بمصالح طبقية ونظرية لفئات تستغل الجماهير العربية الواسعة وتلتقي مصالحها في النهاية مع اعداء الامة، وتصب مقاومتها للنضال القومي الاشتراكي لجماهير الامة العربية في خندق اعداء النهضة العربية.

فالثقافة العربية وهي لسان حال الجماهير العربية الكادحة، تنظر الى الاشتراكية كتعبير بديهي وطبيعي عن مصالح جماهير امتنا كما تنظر اليها على انها سمة مميزة لعصرنا الذى يشكو اليوم من تناقضين اساسيين في الحرية بأسم الاشتراكية. والعدوان على الاشتراكية بأسم الحرية وهذا ليبين ان امام الثقافة العربية ايضا مهمة استثنائية وهي تخليص كل من مفهومي الاشتراكية والحرية من هذا التناقض وشق طريق مبدع نحو تمثل مفهوم جديد للاشتراكية قائم على الحرية وعلى الايمان بالانسان كغاية ووسيلة.
يسير جنبا مع جنب المفهوم الاشتراكي القومي المستند الى مفهوم جديد للامة والى مفهوم جديد للبعد الاممي الحياة القومية والنضال القومي.
سادسا واخيرا فأن دور الثقافة العربية في المجتمع العربي المعاصر هو ذو بعد (ديمقراطى) ينطلق من الحرية كأساس لكل عمل ثوري او جماهيري او وحدوي او اشتراكي. لانه يعبر عن ايمان بالانسان، وبأعتباره الهدف الاساسي والغاية الكبرى لكل صنفه وتطور وتقدم وحضارة.
وهذا البعد (الديمقراطى) يكتسب في الظرف الراهن من حياته مجتمعنا العربي المعاصر اهمية استثنائية. لان اختناق هذا البعد يشوه كل الابعاد الاخرى ويجعلها الفاظا لاحقائق حية.
ثم ان ضعف الممارسة الديمقراطية الذي يميز الظرف الراهن مرحلتها يضع الثقافة العربية ذاتها امام امتحان تاريخي فهي لاتستطيع ان تستسلم للاوضاع الخانقة للحرية من جهة في المجتمع العربي. وهي لاتستطيع من جهة اخرى ان تقاوم بفعالية واضحة تلك الممارسات، لانها لم تشكل بعد شروط التأثير الفعال اليومي في الحياة العربية لذلك كان للبعد الديمقراطي دور استثنائي في هذه المرحلة.
وهذا الدور هو الذي يضع على عاتق الثقافة العربية مهمات مضاعفة في النضال من أجل الامة ومن أجل فسح المجال امام الجماهير العربية لتمارس دورها النضالي.
كما يعرضها ويعرض خطتها الى اخطار جدية تتصاعد كلما صممت على مواجهتها واقتحمتها بجرأة وقدمت التضحيات المطلوبة منها وهي كلما فعلت ذلك، كلما تقدمت بسلاح الكلمة الى مرتبة اعلى في سلم الكلمة.
وبالتالي دفع القوى الرافضة في المجتمع العربي المعاصر

وفي عالم اليوم الى الانسجام مع التطور التاريخي لمسيرة البشرية نحو التقدم في اتجاه تحقيق المعاني الانسانية لوجود الانسان.

٤ ـ هل نستطيع ان نتكلم عن (استراتيجية) تنظيم دور الثقافة العربية في المجتمع العربي المعاصر؟

ان الدور الانبعاثي للثقافة العربية في المجتمع العربي المعاصر، ينبع كما لاحظنا من كون الثقافة العربية المعاصرة جزء من حركة النهضة العربية الحديثة. لذلك فأن هذا الدور الانبعاثي الذي يحد من نقل النهضة العربية من المرحلة العفوية الى المرحلة العالمية الثورية لابد ان يمر هو ايضا بمراحل، وان يتطور ضمن اطار السباق التاريخي النضالي لانبعاث الامة.

فأذا كان القرن التاسع عشر قد شهد المبادرات المتعددة للنهوض باللغة العربية واحياء التراث العربي وبعث الثقافة واطلاع على ثقافات الامم.. فأن تلك المحاولات التي كانت بطبيعتها العضوية وتوترها النفسي النضالي، تشكل ملامح نهوض للامة، كان لابد ان تتطور وتنتظم وتصبح اكثر صلة بالنضال السياسي والاجتماعي خلال القرن العشرين.

ولاسيما خلال الفترة التي اجتازت فيها الانسانية اقسى محنة شاملة في تاريخها خلال الحرب العالمية الثانية.

فقد كان وقع هذا الحدث العالمي قويا على المجتمع العربي المعاصر. لانه التقى بتأثير تيار النهضة الصاعد. لذلك اصبحت الثقافة بمثابة النبض المعبر عن حركة القلب. فالثقافة العربية، اخذت معاني التحسس بتناقضات العصر وبأزمة الحضارة الحديثة جنبا الى جنب مع وعي المحنة القومية التي تعيشها الامة العربية في هذه المرحلة من تاريخها ومن تطور العالم.

لذلك انتقلت الثقافة العربية الى مرحلة جديدة، استطاعت خلالها ان تبدأ عملية التبلور منظورها الحضاري الجديد وان تبدأ ايضا عملية الخروج من دائرة التبعية للثقافات الاخرى، وان تتخلص من قيود النظرة السلفية الجامدة، وان تحدد الاهداف الاساسية للمرحلة القومية.

وعلى هذا الاساس بدات الثقافة العربية تنتقل من مرحلة العفوية الى مرحلة التخطيط العفوي، الذي ينظم علاقتها بالمجتمع العربي المعاصر على اسس اكثر متانة وفاعلية. بيد ان التحديات القومية مالبثت ان كشفت للمثقفين العرب، ان جانبا من اسباب السمات القومية، اما يرجع الى الملل المتزايد التوازن بين التخطيط المحكم للغزو الثقافي المنظم وبين عفوية التخطيط القومي. وان جهودا مخلصة ومبدعة ماتزال تنظر العمل الثقافي العربي، حتى تكون مسيرة في مستوى تحدياته.

ان تطورا لايمكن اغفاله يجري على صعيد انشاء مراكز للبحوث وعقد المؤتمرات وتأسيس المجلات الثقافية وتطوير عمل تلك المراكز ونشاط الندوات الثقافية القومية. الى غير ذلك من الجهود التي تصب في اطار تنسيق العمل الثقافي العربي..

الا اننا مانزال لم نقترب بعد من المرحلة التي يتطلبها الدور الانبعاثي للثقافة اليوم وهي مرحلة انضاج ورسم استراتيجية قومية للعمل الثقافي العربي.. وبالرغم من اننا نلمس جهودا وتطلعات نحو توحيد عمل المثقفين العرب، فأننا مانزال في مرحلة تنسيق التجزئة اكثر مما نحن امام تلبية الحاجة الى (استراجية عربية للثقافة).

ان مفاهيم وقضايا ومواقف ثقافية كثيرة ماتزال تنتظر التحديد الواضح الجامع والموحد لنظرة المثقفين العرب الى الماضي القومي والى الحاضر الراهن والى صورة المستقبل القريب والبعيد.

كما ان تيارات ثقافية متعددة متباعدة لم تكتشف بعد مايجمعها من عناصر مشتركة ثم ان هناك مشكلات للثقافة وللمثقفين العرب في اقطارهم. لم توضح اهتمام جدى ودراسة موضوعية، ولم تواجه بخطة تؤكد المرور الانبعاثي للثقافة وللمثقف العربي، وتحمى هذا الدور من تعسف القوى المعادية للثقافة. وبالتالي المعادية للامة ان الثقافة ماتزال مطالبة بأكثر مما تقوم به. عمليا على

تحقيقه. والمثقف يحاسب في كثير من الاحيان على ما ليس له يد فيه ويدفع ثمنا غاليا اكثر مما يلقى تشجيعا.. كل ذلك لان المرحلة تتطلب من جهة فهما اكثر مما يقدمان، في ظل ظروف عملهما ثم لان هناك من جهة اخرى من يستغل هذا الفراغ في استراتجية العمل الثقافي العربي لكي يكيل الاتهام للثقافة ولكي يمعن في النيل من المثقفين.

فالاستراتجية، الكفيلة بتوحيد الجهود الثقافية في المجتمع ورفعها الى مستوى الدور الانبعاثي الذى تتطلبه المرحلة التاريخية اصبحت تشكل ضرورة موضوعية ضاغطة ملحة.

وكل مبادرة جادة في هذا الاتجاه، تعتبر تلبية لاكثر الحاجات الثقافية القومية في المرحلة الراهنة.

ان الفراغ الستراتيجى للعمل الثقافي القومي، اصبح يشكل عامل تحديد للايدلوجية القومية ذاتها.

فالثقافة العربية لن تستطيع بعد الان ان تحكم صلتها بالتراث القومي دون بعث للتراث العلمي والحضاري، تخطط له وتستخلص دروسه وتعمل على اعادة انشاء ذلك الصرح الخالد في الذهن العربي.

(استراتيجية) متكاملة للعمل الثقافي القومي. والثقافة العربية ايضا لن تكون نابعة من ارض المعركة القومية، الا اذا التحمت بحركة النضال العربي التحاما عضويا قائما على ربط العمل الثقافي بالعمل السياسي ربطا عمليا وعلميا، يستمد من نضال الجماهير العربية ومن الممارسة الديمقراطية، ضمانه اقترابه الدائم من حقيقة الامة والتعبير عن شخصيتها. ثم ان الثقافة العربية لن تكون (ثقافة قومية) اي شيئا اكثر من مجرد تراكم للثقافات المحلية القطرية اومجرد انعكاس للثقافات الاجنبية، او محصلة لتناقضات الواقع العربي الراهن الا اذا اخذت شكل مسيرة نضالية منظمة، يقترن فيها النضال من أجل الاستقلال السياسي والاقتصادي والثقافي، بالنضال الوحدوى والنضال الاشتراكي.

فالاستراتجية الثقافية هي التي تضمن بعد الان ان تكون الثقافة في المجتمع العربي المعاصر (ثقافة عربية). تعبر عن حركة الحياة العربية بأتجاه الوحدة وبأتجاه التطوير المتسارع والتقدم. اي بأتجاه ينسجم مع قوانين حركة المجتمع العربي في المرحلة التاريخية الراهنة.

ولن تكون الثقافة العربية بعد الان معبرة تعبيرا حقيقيا عن معاناة الامة في ساحة نضالها الاكبر في فلسطين الا اذا كان تخطيطها على مستوى تطويق مخططات العقل الصهيوني والاجهزة الاستعمارية. وكانت قادرة على كشف الواقع العربي وتفجير طاقات يومية كامنة في زوايا المجتمع العربي واخيرا فأن الثقافة العربية لن تدفع عنها مؤامرات التزيف والتشويه والتضليل الثقافي، الداخلية والخارجية، ولن تستطيع ان تقدم معايير جديدة لتمييز الاصيل من الهجين والرجعي من التقدمي والثورى من الانتهازي والوحدوي من الانفصالي والاشتراكي من البرجوازى، والعربي المنتسب الى حقيقة الامة من العربي المنتسب الى واقعها المريض الا اذا مرحلة التخطيط الستراتيجي الذى يسمح لعملها العلمي النضالي ان يسيطر على الظروف وبحسن استخدام الفرص النضالية، ويهتدي بنظرية ايدلوجية وبمنظور حضاري يجمع ابناء الامة ويوظف طاقاتهم النضالية في طريق واضح، وضمن اهداف تاريخية منسجمة مع شخصية الامة ومع ضرورات واقعها المتفجر، وعصرها المتطلع الى حضارة جديدة..

ان التصور الاولى لملامح هذه الستراتيجية ينبغي أن يقوم على دراسة الواقع الثقافي والازمة الثقافية الراهنة وعلى تقصي الحاجات الاساسية للنضال الثقافي، واكتشاف الشروط الاساسية لحقيق الابعاد الكبرى للدور الانبعاثي للثقافة العربية في المجتمع المعاصر.

وفي ضوء التصور الاولى لتلك الحاجات والشروط، الذى ينبغي ان يمتحن بأستمرار من خلال الدراسة والتجربة، نستطيع ان نحدد الهدف العام لاستراتيجية العمل الثقافي العربي.

وهو التقدم بسلاح الكلمة الى مرتبة اعلى في القيمة وفي القدرة معا.
وهذا الهدف النضالي لايمكن ان يتحقق الا من خلال سيرة النضال العربي التي تشقها جماهير الامة العربية في مرحلة نهضتها المعاصرة.
فالمجتمع العربي المعاصر يخضع لعملية صراع داخلي وخارجى لامثيل لهالا في تاريخه الخاص، ولا في التاريخ العام المعروف للمجتمعات الاخرى.
وكل استراتيجية ثقافية قومية، ينبغي ان تقدم على تنظيم النضال الثقافي وعلى التخطيط له.
وعلى قدر عمق الصراع الداخلى الخارجى في المجتمع العربي وعلى درجة شموله ينبغى ان نتوقف عند جانب من جوانب العمل النضالى وان لانهمل الجوانب الاخرى. او ان نتجمد عند مستوى من المعالجة لاينفذ الى صميم المشكلات النضالية للعمل الثقافى القومى.
وعلى هذا الاساس فأن الستراتيجية الثقافية القومية في المجتمع العربي المعاصر لابد ان تنطلق من مفهوم متميز للعمل الثقافى سواء من حيث الشمول اومن حيث العمل فالانتقال بسلاح الكلمة الى مستوى اكثر تقدما من حيث القيمة والفعل، هدف يحتاج تحقيقه الى نظرة جذرية واساسية للعمل الثقافى كطريق نضالى.
وهذا يعني ان يكف المثقفون العرب عن النظر الى الثقافة العربية علي انها على غرار واقع الثقافات في الامم التي انجزت ثوراتها الاساسية بأتجاه تثبيت الوجود القومى ووضعت مجتمعاتها على طريق التقدم المضطرد.
فالثقافة العربية ليست مسرحا بل هي ساحة معركة. وهي ليست حفلا بل هي مسيرة.
والمثقف العربي، شاء ام ابىٰ. جندى مجهول وكادح مسؤول، تفرض عليه مهمات الثقافية العربية ـ ان يحمل سلاح الكلمة وان يتقدم ليحارب في ميادين متعددة في الفكر والتربية والادب والعلم والفن وحتى في ميادين الحياة الروحية والميادين التطبيقية المتعددة بمستوى قيادي من الالتزام بقضايا الامة والوطن / والنضال الجماهيري السياسي والاقتصادي والاجتماعي ومن خلال هذا الفهم للعمل الثقافي الذي تحتمه المرحلة التاريخية الراهنة للمجتمع العربي المعاصر، يأتي التخطيط الثقافي القومي ليؤكد الحاجة الى الانطلاق / اولا وقبل كل شيء من (منظور حضاري انبعاثي) اي من نظرة حضارة جديدة متحررة من التبعية للمنظورات الغربية الثقافية، وقائمة على ادراك موقع الامة العربية في هذا العصر.
إن المنظور الحضارى الجديد هذا انما يعبر عن حصيلة تطور طويل لحركة النهضة العربية خلال القرنين السابقين اللذين شهدا مخاض الانتقال من الحوار التبعي الى الحوار المستقل من الثقافات العربية الحديثة. الفكر الاصلاحي الدينى، والفكر الليبر الى، والفكر / القومي البرجوازي والفكر الاشتراكي الامى. . حلقات في سلسلة ذلك المخاض التاريخي الذي انضج عملية تحرر النهضة العربية من التبعية الثقافية للمنظور الحضاري الغربي. وجعلها تصل بعد استكمال وعيها لذاتها وللاخر الذي يجمع الصديق والحليف القريب والبعيد الى جانب العدو، الداخلي والخارجى ـ الى بلورة منظور نهضتها. الانبعاثي.
وهذا المنظور الحضاري للنهضة العربية، هو الذي يحدد ابعاد الاستراتيجية الثقافية في المجتمع العربي المعاصر. فهو لابد ان يكون المحور الاول لعملها وتخطيطها (إعادة انشاء المعرفة في الذهن العربي على اسس ثورية جماهيرية وحدوية، ديمقراطية، اشتراكية) حتى تصبح المعرفة في الفكر العربي المعاصر متطابقة مع ابعاد الدور الذي تمليه المرحلة التأريخية على الثقافة العربية في المجتمع العربي المعاصر.
ثم ان المحور الاساس الاخر لستراتيجية العمل الثقافي العربي هو (تهيئة الاجيال العربية الجديدة واعدادها لحمل مسؤولية هذه المهمة التاريخية). وهذه الستراتيجية النضالية للعمل الثقافي العربي، التي ترسم للمدرسة وللجامعة وللمعمل والمزرعة، طريق عملها الثقافي، وتحدد لها المهام الجديدة كما تكشف لها عن نواحى النقص

والتقصير في مستوى عملها ـ الثقافي الذي تتطلبه المرحلة القومية . . انها تدخل المعركة مع كل زاوية من زوايا المجتمع العربي المعاصر. لكي تهزه من الاعماق ولكي تبعثه من جديد فتكشف المواهب الكامنة وتنمي الاستعدادت القائمة وتطلق الطاقات المستعدة وتغرس فيه بذور الثورة الدائمة والانقلاب على الذات وعلى الاوضاع الموروثة من مرحلة الانحطاط فهي اذن / ١ / استراتيجية تهدف الى تحقيق ولادة جديدة للمجتمع العربي المعاصر. لذلك فهي لابد ان تصطدم بكل مراكز العطالة في المجتمع العربي . وان تجد نفسها في حرب دائمة مع الانظمة التي لاتستلهم روح النهضة العربية / ٢ / ومع الممارسات السطحية والمتناقضة للقوى وللاوساط الثقافية التي لم ترتفع الى مستوى التعبير عن الثقافة العربية بمعناها الانبعاثي الجديد، الذي تتطلبه المرحلة القومية

الا انها سوف تعتمد بأستمرار على نمو الوعي الجماهيري وتجاوبه معها وسوف تكون سلاحه في تحريره من الامية وفي تعميق وعيه الوحدوى الاشتراكي ، وفي توحيد النضال الجماهيرى وفتح ابواب الحرية امامه كما ان هذه الستراتيجية الثقافية ، سوف تحضى دوما باسناد جميع القوى الحية في المجتمع العربي المعاصر. وبصورة خاصة، الشباب المتطلع الى بناء مجد الامة .

وهي لابد ان تجذب اليها كل العقول المتفتحة والنفوس الادبية من المثقفين الذين يعانون ويكدحون ويعيشون على نتائج فكرهم وصوت كرامتهم لانها تشق لهم طريقا جديدة يتجدد فيها الفكر النضالى ، وتصبح الثقافة القيمة العليا في المجتمع العربي ، المنبعث من جديد .

ان مثل هذه الستراتيجية القومية للثقافة ، لاتستطيع ان تنهض بها مؤسسات ونظم قطعت صلتها بروح النهضة العربية .

وقد سبق لرائد قومي تربوي من رواد هذه النهضة وهو الاستاذ ساطع الحصرى ان لخص معاناته الثقافية داخل اروقة الجامعة العربية ، فأشار في كتابه الذي يحمل عنوان (ثقافتنا في الجامعة العربية) الى فشل الجامعة ونظمها في رسم استراتيجية قومية للثقافة . لانها بالاصل على منهج فاشل قوميا لانها عجزت حتى عن تحقيق مستوى (تنسيق التجزئة) . لذلك فأن المثقفين العرب لم يتمكنوا ضمن اطار عمل الانظمة الرسمية العربية ، من تحقيق الحد الادنى من تطلعاتهم العضوية المشتركة .

لذلك فأن الستراتيجية الثقافية القومية ، لايستطيع ان ينهض بها وان يحققها الا المثقفون العرب بأنفسهم وبمبادرة اصيلة معبرة عن حريتهم وبملئ ارادتهم . وضمن مناخ صحى يسمح لهم بأن يتصوروا مهمتهم الثقافية تصورا نضاليا جماهيريا من دون اية ضغوط او تسويات . . . وأن يكون الرصيد المعنوي من الثقافة والنضال لاولئك الذين يبادرون الى العمل من اجل هذه الستراتيجية هو نقطة الارتكاز والبدء الاساسية . .

وقد عبر الرفيق القائد المؤسس ميشيل عفلق في مقالة عهد البطولة التي افتتح بها مقالات وكلمات كتابه (في سبيل البعث) عن شروط ومعاني كل بداية جديدة وناجحة في اتجاه التعبير عن روح النهضة العربية المعاصرة حيث يقول(

الان تنطوى صفحة من تاريخ نهضتنا العربية صفحة جديدة تبدأ صفحة الذين يجابهون المعضلات العامة ببرودة العقل ولهيب الايمان ويجاهرون بأفكارهم ولو وقف ضدهم اهل الارض جميعا ويسيرون في الحياة عراة النفوس هؤلاء هم الذين يفتتحون عهد البطولة . . ان هؤلاء الذين ينظرون الى افكارهم كأشجار حيه تنبت في ارض الامة وفي ساحة نضالها ويدفعون ثمن ارائها فلا يتحولون معها الى اصنام جامدة اوبضاعة رائجة هم الذين يشكلون المادة الاولية المتينه لتحويل الثقافة العربية من واقعها الراهن في المجتمع العربي المعاصر الى سيرة نضالية متماسكة فاعلة في حياة الامة وجماهيرها المتطلعة الى حياة قومية صحية تبني من خلالها حضارتها الجديدة ، وكلما استطاعت هذه النواة من المثقفين الذين كشفت التجارب النضالية معادنهم الاصلية ، ان تعبر عن عقلية

وحدوية ونفسية وحدوية وحس شعبي وعن الايمان بالحرية وعن عقل علمي ونظرة موضوعية، كلما أكدت اتصالها بروح النهضة العربية واستطاعت ان تخوض معارك الدفاع عن حرية الفكر والتمسك بالاهداف القومية الكبرى وان توسع حقل المشاركة في نضالها ونضال الجماهير العاملة الكادحة وان تهيئ الشروط اللازمة لوحدة العوامل الذاتية والموضوعية لنجاح الاستراتيجية الثقافية القومية في المجتمع العربي المعاصر...

خاتمة:

لقد حملت الاجوبة التي تقدمت على الاسئله التي انطلق منها هذا البحث جملة من التحديدات لمفهوم المثقف والثقافة ودورهما في المجتمع العربي المعاصر وللمرحلة التي تمر بها الثقافة العربية في المرحلة الراهنة وللاستراتيجية القومية المطلوبة لتنظيم وتطوير العمل الثقافي القومي بأتجاه الانسجام مع حركة النهضة العربية المعاصرة..

وفي ضوء هذه التحديدات قد تبين بأننا لانستطيع ان نتكلم عن (ثقافة عربية) خارج اطار هموم الامة العربية وقضاياها المصيرية ونضال جماهيرها الكادحة وشخصيتها الحضارية وأننا لانستطيع ان نسمى مثقفا عربيا، من لم يلم بتاريخ امته ولم يتجاوب مع روحها ولم ينفذ الى عبقرية الامة من خلال لغتها وشعرها وقرانها وتراثها الادبي والفكري والعلمي ولم يتحسس الازمة بين حقيقة الامة وبين واقعها ولم يستوعب التناقصات الاساسية في المجتمع العربي المعاصر ولم يدرك عمق الانقطاع الحضارى من ماضي هذا المجتمع وحاضره، ولم يؤمن بالطاقات الكامنه فيه المستعدة للانطلاق نحو المستقبل ولم يملك روحا ثورية مقترنة بعقل علمي ونظرة معاصرة مستوعبة لتيارات الفكر المعاصر وثقافاته الجامعة للحداثة والاصالة..

واخيرا فأننا لن نستطيع ان نتكلم عن دور جدى للثقافة العربية في المجتمع العربي المعاصر، من دون الانتقال الى مرحلة جديدة من التخطيط – الاستراتيجي للعمل الثقافي القومي، يضع سلاح الكلمة في موقع اكثر تقدما في سلم القيم وفي موازين القوى على حد سواء.

واذا كانت هذه التحديدات، التي هي في الواقع تحديات امام المثقفين العرب اليوم واذا كان لها في واقع معظم الاوضاع العربية معنى (الحلم الثوري) فأن في واقع التجربة الثورية الفذة في العراق تأخذ معنى (المشروع الثوري) الذي تقترب فيه العوامل الذاتية والموضوعيه معا من حدود ولادة ايجابية تشعل نارا جديدة وتطلق نورا جديداً في جسد المجتمع العربي المعاصر الذي يرى في عراق البعث صورة انطلاقته الاصيله نحو الثورة الثقافية الشاملة ونقطة تحول للثقافة العربية من مرحلة العفوية الى مرحلة العقل الثوري المنظم المطل على ابعاد جديدة للحياة النضالية العربية في المرحلة التاريخية الراهنة..

فالتجربة الثورية في العراق تسير في نفس الاتجاه الذي يتطلع اليه المثقفون العرب على اختلاف آيدلوجياتهم نحو خلق رابطة ثابتة ودائمة تجمع المثقفين المناضلين وتجعل منهم كتلة موحدة تضيف ثقلا نوعيا الى حركة النضال العربية وتخلق فيما بينهم عصبية تشدهم وتعزز دورهم في المجتمع العربي، عصبية الانتماء الى الفكر المناضل والثقافة المقاتلة.. كما ان التجربة الثورية في العراق تفتح الابواب الحرة الواسعة امام المثقفين المناضلين العرب للحوار الهادف الى تكوين نظرة موحدة لتحديد برنامج عمل تجاه القضايا المصيرية لامنهم، لتصب جهود الباحثين والمفكرين المناضلين في طريق موحدة، تضاعف اهمية دور الكلمة في المجتمع وفي النضال القومي..

وقد نهج العراق الثوري طريق انشاء مراكز البحوث التي تهتم بتعميق الابعاد الثقافية للمشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تطرح في المجتمع العربي المعاصر كما تركز الاهتمام على تكوين رأى عام جماهيري محصن بثقافة شعبية مساندة للثقافة الثورية ومن خلال التخطيط للاعمال الثقافية المتعلقة بالقضايا الاساسية

للثقافة العربية تبين الاهمية التي تحضى بها التجربة الثورية في العراق من خلال بناء الركائز الاساسية لستراتجية العمل الثقافي القومي واهمها : ـ

١) القضايا التراثية : بما تشمله من

أ ـ دراسة متكاملة للتطور التاريخي والاجتماعي والحضاري للمجتمع العربي خلال المراحل التاريخية المتعاقبه .

ب ـ تحديد للمعنى الثوري العلمي للتراث وللعلاقة بين التراث القومي وبين النضال الفكري والعمل الثقافي المعاصر

جـ ـ تحقيق الاثار الثقافية وابرازها وترجمتها الى اعمال فنية تغرس قيمها في ضمير الاجيال الجديدة .

٢) القضايا النضالية : التي ترتبط :

أ ـ بفكرة النهضة العربية ومنظورها الحضاري وقضايا الاصالة والمعاصرة في الثقافة العربية .

ب ـ بفكرة الوحدة العربية ومسيرة نضالها .

جـ ـ بقضية الصراع العربي مع الصهيونية والاستعمار وكشف عنصرية الفكر الصهيوني والممارسات الفاشية للعدو وقضايا التحرير ومقاومة المؤامرة التي تستهدف التشكيك بالفعل العربي والشخصية العربية والغزو الثقافي لها .

د ـ بقضايا الارتباط المصيري بين العروبة والاسلام كمحركين تاريخيين نضاليين روحيين للعرب في نهضة الامة العربية المعاصرة .

ه ـ بقضايا التحويل الاشتراكي والنضال الجماهيرى .

و ـ بالمسألة الديمقراطية وتجربة الحكم في الوطن العربي .

٣) القضايا العالمية : التي تتعلق :

أ ـ بالاطلاع على التجارب العالمية وعلى التيارات الفكرية المعاصرة .

ب ـ بمتابعة ومواكبة ودعم حركة التحرر في العالم والاتجاهات الفكرية المساندة لها .

د ـ بالدراسات المعمقة عن العالم الثالث وشؤ ون القارات الثلاث .

ء ـ بعقد الندوات العالمية وفتح المجالات امام المثقفين العرب للحوار مع المفكرين الاحرار التقدميين على المستوى العالمى .

ان هذه الخطوات الهادفة الى وضع الثقافة العربية في موقعها النضالى الحضارى من مسيرة المجتمع العربي المعاصر، انها تستند الى المنطلقات ـ الاساسية للايدلوجية العربية الثورية التي انضجها فكر حزب البعث العربي الاشتراكي ، والتى تعمل الثورة في هذا القطر على ترجمتها الى نظرية عمل ثقافية كفيلة بأن تضع (الكلمة) في مكانها الى جانب (العمل الكادح) (والسلاح المنظم) (والعمل الفدائى) ووسيلة الى وضع الامة العربية ومجتمعها المعاصر . على طريق الانبعاث وتحقيق رسالة العروبة الحضارية الانسانية .

★ ★ ★

المراجع

(١) انظر . ميشيل عفلق . في سبيل البعث . ط ١٢ ص ١٣٥ ـ ١٣٨

(٢) مالك بنبى ـ مشكلة الثقافة ـ دار الفكر . بيروت / ٨١٩٧١ ط ٢

(٣) انظر (زكى الارسوزى) المؤلفات الكاملة) الجزء الاول . دمشق ١٩٧٣ .

(٤) انظر كتاب في (الثقافة والحضارة) للمؤلف . بغداد . (في الثقافة والحضارة ٩٧٩ . ص٨٧

(٥) ميشيل عفلق في سبيل البعث . ص ٢١ ـ ٢٣

(٦) المصدر نفسه . ص ٤ ـ ٥

د.إلياس فرح

بغداد - كانون الثاني/شباط 1982